ثروت باشا

بقلم تلميذه الروحي وكاتب سره الخاص الدكتور احمد فريد رفاعي مدير ادارة المطبوعات

***

قدس الله ذكراك ، وطيب مثواك ، صديقي العلاَّمة المرحوم الدكتور يعقوب صرُّوف

أذكر بجلاء ووضوح ذلك اليوم المترع بالدروس والعظات ، يوم أزمة الجيش ، حين كانت وزارة عدلي باشا ، وحين كان ثروت باشا وزيراً للخارجية ، وحين كان للحكومة الانجليزية موقفها الخاص الدقيق . اذكر ذلك اليوم تماماً ، واذكر ان المرحوم الدكتور يعقوب صرُّوف تلفن اليَّ وانا في مكتبي اثناء ساعات العمل ، وقال انهُ يود مقابلتي في شأن خاص يهمني ، واذكر انني ذهبتُ اليه ، وافضى اليَّ برغبته في مقابلة دولة ثروت باشا ، لأمر ذي بال

مرَّت ايام قليلة ، وكانت ازمة الجيش قد اشتدت وطأتها ، وزادت حدتها ، ومررت كعادتي في الصباح وانا في طريقي الى الديوان على المقطم ، وقابلت وقتئذٍ الاستاذ الدكتور « نمر » فقابلتُ عندهُ طيب الذكر الدكتور « صرُّوف » ، فأخذني الى حجرته ، وكادت ألفاظهُ تكون رحمة الله عليه رحمة واسعة : —

« ثروت باشا بلا ريب من أكبر ساسة اوربا . عقلية جبارة حادة ، وذكاء متناهياً ، وأصالة رأي . ولكن الشرق لا يفهمهُ الآن . وسيحملونهُ على الاعناق في القريب . يجب ان تؤمن بذلك وان تثق به تمام الوثوق . انهُ وطني غيور جداً . ومطلع غزير المادة ، يقتل موضوعاته بحثاً وتنقيباً وتقليباً على مختلف الوجوه » . ثم قال : « اتعرف لماذا ذهبت لمقابلته ؟ » . قلت لا . قال : « لما حصلت ازمة الجيش : رأيتُ واجباً عليَّ ان ابحث الموضوع الذي جعل الانجليز يقفون امام سعد وعدلي وثروت هذا الموقف . . . بحثت فوجدت ان المسألة مبالغ فيها ، وانهُ ليس للانجليز ما يبرر موقفهم في تجسيمها ، وان لمصر من الحقوق ما لا ينكر حتى في كتاب مصر الحديثة للورد كرومر . .

« رأيت ذلك ، فقابلتُ ثروت باشا ، وسألتهُ عن وجهات نظره ، وعن اوجه دفاعه وعن الحلول التي ارتآها . . . فوجدتهُ لم يترك شاردة ولا واردة . . . والذي ادهشني ، ان تلك النقط التي ظننتُ انني قد وقفت على كنز حينما أطلعتُ عليها . . . كانت

المغفور له عبد الخالق ثروت باشا

مقتطف نوفمبر ١٩٢٨

أمام الصفحة ٢٤٢

بمثابة وشل من بحر . . . . . كانت لا شيء . حقًّا انهُ لرجل عظيم . وأني مسرور جدًّا ياصديقي لتلمذتك لهُ ، وصلتك بهِ . ستستفيد ستستفيد . »

ومات الدكتور يعقوب صرُّوف . ولم يمضِ حول حتى مات ثروت باشا بعد أن رأس حفلة تأبينهِ . فقد كان « ثروت » ونياً لاصدقائهِ . الاحياء منهم والاموات

مراقبه :

لست بمتعرض للبحث في السياسة ، وماذا كان لزعيمنا الراحل من وجهات نظر في سبيل خدمة بلادهِ ، ولا بموازنٍ اوجه النفع في اتباعها ، او اتباع غيرها ، وأوجه الضرر في التكب عنها والأخذ بسواها . فان ذلك يجب ان يترك للتاريخ اولاً ، ولسواي ثانياً ، ولغير المقتطف ثالثاً . ولعلهُ يجدر بي العناية بمواهبهِ من حيث النواحي الشخصية فأتحدث اليك عن ثروت باشا كمحدث ، وكخطيب ، وككاتب ، كما أتحدث اليك عن نواحيهِ الخلقية كحياتهِ وتواضعهِ ، ومحاسبتهِ لضميرهِ ، تاركاً لصديقي الكاتب النابغة الدكتور طه حسين ان يمتع القراء ببحث عن وفاء ثروت ووده وصداقته ، مجتزئاً بالقليل عن الكثير ، لضيق المقام في مجلة شهرية تعنى بمختلف الموضوعات وشتى البحوث

ثروت باشا كمحدث :

في عنتي ان اعترف ، باني قبل صلتي بثروت باشا ، لم اكن اعلم بطريقة عملية اثر سحر الحديث الطلي في النفوس ، واختلابهِ للنهى والالباب

نعم لقد قرأتُ ما كتبهُ « توماس كارليل » عن تلك الملكة في « روبرت بارنز » الشاعر البريطاني النابه ، وقرأت ما سطرهُ بلوتارك في كتابهِ عن اقطاب الخطابة وما عزاهُ الى الخطيب اليوناني « انيفون » من اذاعتهِ عن نفسهِ اعلانه باستعدادهِ بتطبيبهِ امراض العقول والاذهان ، ومداواة علل النفوس والارواح ، بسحر كلامهِ ومسول لفظهِ . وقرأت شيئاً مما كتبتهُ العرب في هذا الصدد من اقبال المستمع الى محدثهِ واثر الحديث العذب من النفوس واخذه بمجامع الافئدة . . . . ولكنني ، لم ارَ ولم اسمع ولم اشاهد محدثاً في قوة ثروت ورقته ، ولا من يدانيهِ فيما حبتهُ الطبيعة بهِ من اكتساب ثقة مستمعه

يتكلم ثروت باشا اليك ، واليَّ ، والى من هو اقل منا جاهاً او اصغر سنًّا ،

تأبى عليه نفسه المرحة الطروبة ، ووجهه الوضاء البسّام ، وروحه البهجة الفرحة ، وقلبه المترع حبًّا ووداداً . يأبى عليه ذلك كله الاّ ان يكون مثلك وفي سنك ومقامك ، والاّ ان يكون السخي في امتاعك وارضائك ، لا عن تعمد واجتهاد ، بل عن سليقة واستعداد . وربما كان من العدل ان نقول ، ان لهذه الناحية الجذابة من شخصيته البارزة القوية ، أكبر أثر في نجاحه في مفاوضاته السياسية

واذا جاز لنا ان نستطرد في بيان مقدرته في هذه الناحية ، وتفوقه فيها ، مع ظرف ولباقة ، ورقة وحصافة ، وايمان بالسليقة بما للقول العذب السلسبيل ، من صنع حسن جميل ، وما للحديث الشيق الطريف ، من أثر ممتع ظريف ، نقول لك ان ثروت باشا كان في مفاوضاته يعنى بتعرف نفسية مفاوضه ، ويدرس بصبر وأناة وسائل اجتذابه الى صفه . فكان يستغل تلك المنحة النادرة التي حبتهُ بها الطبيعة ، والتي كانت في سليقته ودمه — في نيل حق ودفع ظلم ورد جائحة !

لقد تحدث الى اللورد اللنبي ، وستنشر مذكرات المرحوم ثروت باشا عن مفاوضاته الخاصة بتصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ يوماً ما ، وسيقف المصريون منها كيف كان اللورد هائجاً غاضباً على اثر الحالة السياسية بعد مشروع اللورد كرزون ، وكيف الان ثروت باشا قناته ، وهدأ روعه ، وغير نفسيته ، وكيف افضى اللورد الهائج من خيرة المدافعين عن مصر وقضية مصر ، حتى لوّح باستقالته اذا لم تنصف الحكومة الانجليزية هذه الامة الوديعة فتعلن استقلالها وترفع الحماية عنها ، وتوافق على مطالب ثروت باشا

لقد أملاني رحمهُ الله كل حديث دار بين اللورد اللنبي وبينهُ ، وأثق بأنهُ حينما تتاح الظروف المناسبة لن يتأخر المجال زعيمنا السياسي العظيم ، عن نشر تلك الاحاديث التي لا مندوحة للمصريين من الوقوف عليها ليعلموا مبلغ جهاد أبطالهم وثبات زعمائهم في الدفاع عن بيضة وطنهم

لقد أرعد اللورد وأبرق بادىء ذي بدء ، وتكلم عن قوة بريطانيا واساطيلها وعن تصميمها بالاحتفاظ بقنال السويس طريقها الى الهند ، وأسهب في بيان سلطانها وافاض في اظهار حولها وطولها . . . . . واخيراً ماذا ؟

تكلم ثروت باشا مع بارسون ، ومع كيتون ، ومع ايموس ، ومع غيرهم من كبار المستشارين البريطانيين الموظفين بالحكومة المصرية وأصحاب « بنض الرأي » في الوكالة البريطانية . كما تكلم مع كبار موظفي تلك الدار . . . . . وكان قد درس الموضوع

بمذاهبه ، والاشخاص بميولهم ونفسياتهم واتجاهاتهم. وكان قد درس ايضاً النبي وما يحيط به اي درسهُ شخصاً وبيئة . . . واخيراً كان لثروت النجح والتوفيق ، وكان لاحاديث ثروت الفوز الباهر . تلك الاحاديث التي جعلت وزير خارجية انجلترا الحالي « لشمبرلين » يجهر بأن لم يترك احد من وزراء خارجيات دول اوربا في نفسه من الاثر ما تركهُ فيها زعيمنا الراحل الكريم

ثروت باشا كاتب :

وقد اطلع الكثيرون بلا ريب على كتابات الزعيم الراحل ، وحكموا بما لهُ من « ذوق » خاص في تخير الالفاظ ، وجنوحه الى السلاسة مع الفخامة ، وتزوعه الى السهولة مع الطلاوة ، واني لا أرى مندوحة لي هنا من اقتطاف هذه النبذة الصغيرة من كلمته الاتخابية لتبين منحى الراحل الكريم في كتابته قال « إني لأخاطبكم واخاطب إخواني المصريين جميعاً بما خاطبتُ به «سعداً» في كتابي اليه إثر دعوة الامراء للاتحاد. يوم تبينتم جميعاً بأتم وضوح ، وانصع جلاء، ان تفاطننا لم يضر بأحد سوانا . أخاطبكم قبل ان تصدروا حكمكم باختيار من شئتم لينطق بلسانكم ،وليتكلم بشكائكم ، وليفصح عن مشيئتكم، وليناضل في سبيل قضيتكم ،وليحقق آمالكم ومطالبكم . أخاطبكم مهيباً باخلاصكم :

« نحن الآن أحوج ما نكون الى أن يقف الزعماء في هذه البلاد المنكوبة على أمرها،من قادتها قبل خصومها،موقف الناصح البصير بحض قومه خالص النصح فكفاهُ تناحراً وكفاهُ تهاتراً »

« اجل لقد كان اجدى واخلق ان ينادي بهم وهم على ابواب البرلمان : أن ادفنوا يا قوم حزازات الماضي،وولوا اموركم خياركم،وصفوة عشائركم، وخلاصة احزابكم كونوا منهم مجموعة صالحة تناضل عن حقوقكم وتستخلص لكم مطالبكم ، وكم كان يجدر بكل متصدر للزعامة ان يرشد المصريين الى استخدام ما وصلنا اليه احسن استخدام واستغلاله على اكمل الوجوه فنتخذ منهُ عدة في المضيّ لاتمام ما بقي » اهـ

وقد يكون من الممتع حقاً ان نعلم ان لثروت باشا كتباً هي من المثور المنتخب ، في كتب الادب . وقد يكون من الممتع ايضاً ان نعلم ان لهُ ذوقاً سامياً في النقد ، وان اذنهُ تسمع وتقدر ، ولعل لهذه الاذن « السميعة » المحبة لجميل النغمات ، ورخيم الاصوات ، وعذب الأغاني ، وشجي الاناشيد ، شيئاً من الدخل غير قليل حينما ينتقي

هذا اللفظ وذاك ، وحينما يوازن ويفاضل بين جملة واخرى

ولثروت باشا طريقة مدهشة في ترتيب المعاني بطريقة تحليلية منطقية جذابة ، ولهُ من اطلاعهِ الوفير وتجاربهِ العديدة ، وذكائهِ النادر خير معين على ابراز ما يريد في حلة مستحبة مستملحة تنم عن نفسيتهِ المرحة الطروبة

ويصح لي ان استطرد هنا الى حادثة وقعت لي مع الراحل الكريم ليست الاولى من نوعها . ذلك أن دولتهُ امرني بكتابة مذكرة في موضوع خاص . وكانت طويلة متشعبة ، وكنتُ قد عنيت بها عناية خاصة ، وعرضتها على دولتهِ بعد الفراغ منها فنظر فيها دولته نظرة يحكم عليها من لا يعرفهُ او يعاشرهُ انها نظرة سطحية . ويؤمن من يتصل بهِ بانها عميقة ومدبرة ومفكرة . ثم امسك بيراعتهِ وعلّم على بعض فقرها بارقام الصحف التي يصح ان توضع فيها ، وقد حزن في ذهنهِ الجبار مواضع ما قرأ من عشرات الصحف في كتابتي الاصلية الى المقام السلس الذي تخيلهُ وارتآهُ ..

ثروت باشا كخطيب :

وليس من شك ان ثروت باشا المحدث الرقيق الحاشية ، الجذاب الحديث ، الرشيق الاسلوب ، الشيق الكتابة ، لا بد أن يكون خطيباً مفوهاً من الطبقة الاولى . وكان اول عهد الرأي العام بهِ خطيباً بارعاً ، مالكاً أعنة القول واليان ، في مرافعتهِ في قضية الورداني حين كان نائباً عمومياً . وتعتبر هذه المرافعة — الى جانب متانتها في الاسلوب وقوة السبك وفخامة اللفظ ، آية فنية من القطع الخطابية النادرة المثال

وقد رآهُ الجمهور في الجمعية التشريعية مع المغفور لهُ المرحوم سعد باشا زغلول وهما في المناقشة والمحاجاة فرسا رهان

ثم استمع اليه الجمهور ايضاً في افتتاح لجنة الدستور ورآهُ قبلها في « الكوتنتال » حينما تكلم كلمته المأثورة الخالدة عن المعارضة

واخيراً استمع اليه الجمهور في حفلة تأبين سعد . فكان لنبرات صوتهِ ، ولطريقة القائه ، وحسن ايماءاته ، وجميل اشاراته وصادق احزانه ، الى جانب دموعهِ السيالة النبيلة — كان لذلك كله مدعاة لاجماع الجمهور على مكانتهِ الخطابية الاولى

لقد كان ثروت وطنيًّا مؤمناً بحقوق البلاد ، ومؤمناً بوجهات نظره في خدمة قضيتها الاستقلالية . وكان لهذا الايمان اثره العميق من ثروت الخطيب ، وكان ثروت

مؤدباً يطبعه ، جذاباً بنشأته ، حلو الحديث بترينه وبيئته ، متواضعاً محبوباً بسليقته — فكان لهُ من جماع هذا الاثر الخالد في ثروت الخطيب

والآن نتقدم الى القاء نظرة عجلى على بعض نواحيه الخلقية ، كحياته وتواضعه ومحاسبته لضميره ، مجتزئين بالقليل من الحوادث عن كثيرها ، تاركين للصديق الدكتور طه حسين افراد بحث عن وفاء ثروت وودهِ وصداقته كما أسلفنا ، مقررين في الوقت نفسه ان ثروت باشا كان الزوج البر الكريم ، وكان الوالد العطوف الرحيم ، وكان الصديق الودود الحميم . واذكر اني كتبتُ في محليات المقطم في شهر مارس عام ١٩٢٢ بحوثاً تناولتُ فيها ذلك مما لا حاجة بي الى اعادة نشرهِ ، لوفرة النواحي الخلقية الاخرى المتطلبة عناية ودرساً

مبادؤه وتواضعه :

يقول الاستاذ دلاور بك صديق المرحوم ثروت باشا وكان ملازماً للفقيد في اخريات ايامهِ في باريس ، في مذكراته التي بعث بها الى المجال راحلنا الكريم عن تلك الايام السوداء ، ان الباشا قال لهُ في يوم الخميس ٢٠ سبتمبر الماضي اثناء تريضهما في الشانزليزه واليدو انهُ يشعر بآلام في الذراع كتيبه من الروماتزم ، وطلب اليهِ اسم طبيب اخصائي لهذا المرض ، وفي يوم الجمعة ٢١ سبتمبر خرج دولته للرياضة كعادتهِ ولم يتمكن دلاور بك من الاتصال بهِ ، وعند الظهر اضطرتهُ الحالة الى تكليف بواب مسكنهُ بطلب «فاين بوم» طبيب الجهة الذي قرر اصابتهُ بالروماتزم وبضعف قليل بالقلب

استمرت الحالة واشار حاشية الباشا واقرباؤه عليهِ بتغيير الطبيب بسواهُ ، فقال رحمهُ الله «كلاَّ . لا معنى لجرح احساس الطبيب ، لنترك لهُ هو الاستعانة بالاخصائي الذي يختارهُ ان رأى لزوماً لذلك ! »

حتى في تلك الساعة الحرجة ، ابى حياؤه الطبعي ، وخلقه النبيل ، وأدبه الجم الاَّ المحافظة على كرامة النير محافظة ربما كان لها بعض الدخل في استفحال الحالة وتطورها

ولماذا أذهب بعيداً وأمامي خطاب دولتهِ الاخير الذي تعطف وبعث لي بهِ في ١٢ سبتمبر من سنت مورتز قبيل قيامهِ إلى باريس وقد أهمل كاتب زراعتهِ في أداء مهام كلفهُ دولتهُ بها ، قال رحمهُ الله ما نصهُ بالحرف الواحد : « لم يرد لي من الكاتب شيء عن أحوال الزراعات فأرجوك أن تكلفهُ بكتابة تقرير عن حالة كل عزبة وترسله

الي يا ريز، ويستحسن أن لا يعلم ان هذا بناء على طلبي بل ان ذلك من فكرك ليظهر لي نشاطه مدة غيابي خصوصاً أني كلفته بذلك قبل سفري . اه »

محاسبته لضميره

أما محاسبته لضميره فحدث عنها ولا حرج. انها وايم الحق لتتطلب مني قبل سواي أن أفرد لها مقالاً خاصًّا أذكر فيها مئات الامثلة والوقائع التي شاهدتها بنفسي عن كثب ؛ كموقفه من سيف الله باشا يسري حين استنصحهُ في أمر ذي بال بعد استقالة دولته عام ١٩٢٢ ، وكموقفه في الشئون السياسية الجليل منها والهين، وكموقفه في شأن مراد بك أحد وكلاء النيابة حينما كان نائباً عامًّا ، وفي شأن الدكتور طه حسين وكتابه حينما كان وزيراً للخارجية وحينما كان رئيساً لمجلس الوزراء في وزارته الاخيرة، وكموقفه ازاء احمد مختار حجازي بك وكيل مديرية أسيوط عام ١٩٢٢ وغالب كفافي بك وكيل مديرية جرجا في ذلك الحين ، بيد ان ذكر ذلك يطول بي ، وبالقراء ، وبهذه المجلة ، ويطول جداً فلا مفر من الاكتفاء بالحادثة الاخيرة الخاصة بغالب بك كفافي

لقد ابلغ ثروت باشا من بعض اصحاب الرأي ان « لغالب كفافي » من الصفات مالا يليق معها بقاؤه في خدمة الحكومة فبعث بي الى الوجه القبلي بمهمة التفتيش وكلفني بزيارة كل مديرية من غير ان يفهمني غرضهُ الأساسي

سافرت ودرست كل حالة ثم قابلت دولتهُ بمنزله في سنت لوران حينذاك وعرضت على دولته نتيجة مأموريتي وتأكد منها الزعيم براءة « غالب » وطهر ذيله .

طلبهُ المرحوم المبرور الى الاسكندرية في مهمة ما ، ووقف على حقيقة الرجل بفراسته وبنظرة من وراء نظارته ، وما تردد بعدئذ في ترقيته محافظاً للسياط .

خرج غالب وخرجنا على اثره ، وما عتم ان قال لي الراحل الكريم :

« كيف يطلبون مني احالة موظف كهذا الى المعاش ، وكيف استقبل الله وهو سائلي بلا ريب ما جريرة هذا الموظف ؟ أما علموا اني ملزم بأن انتصف لخصومي وعداتي من نفسي بنفسي . . . ؟ هل فاتهم ان للكرسي مسئولية خطيرة امام ضميري وامام الهي ، واني مسئول عن حولي وقوتي امام حول الله وقوته »

اقسم ان ثروت باشا قال لي تلك الجملة الخالدة الاثر في نفسي ؛ إن لم يكن فاه بها بلفظها ونصها فبروحها ومعناها . فإنا لله وانا اليه راجعون « احمد فريد رفاعي »

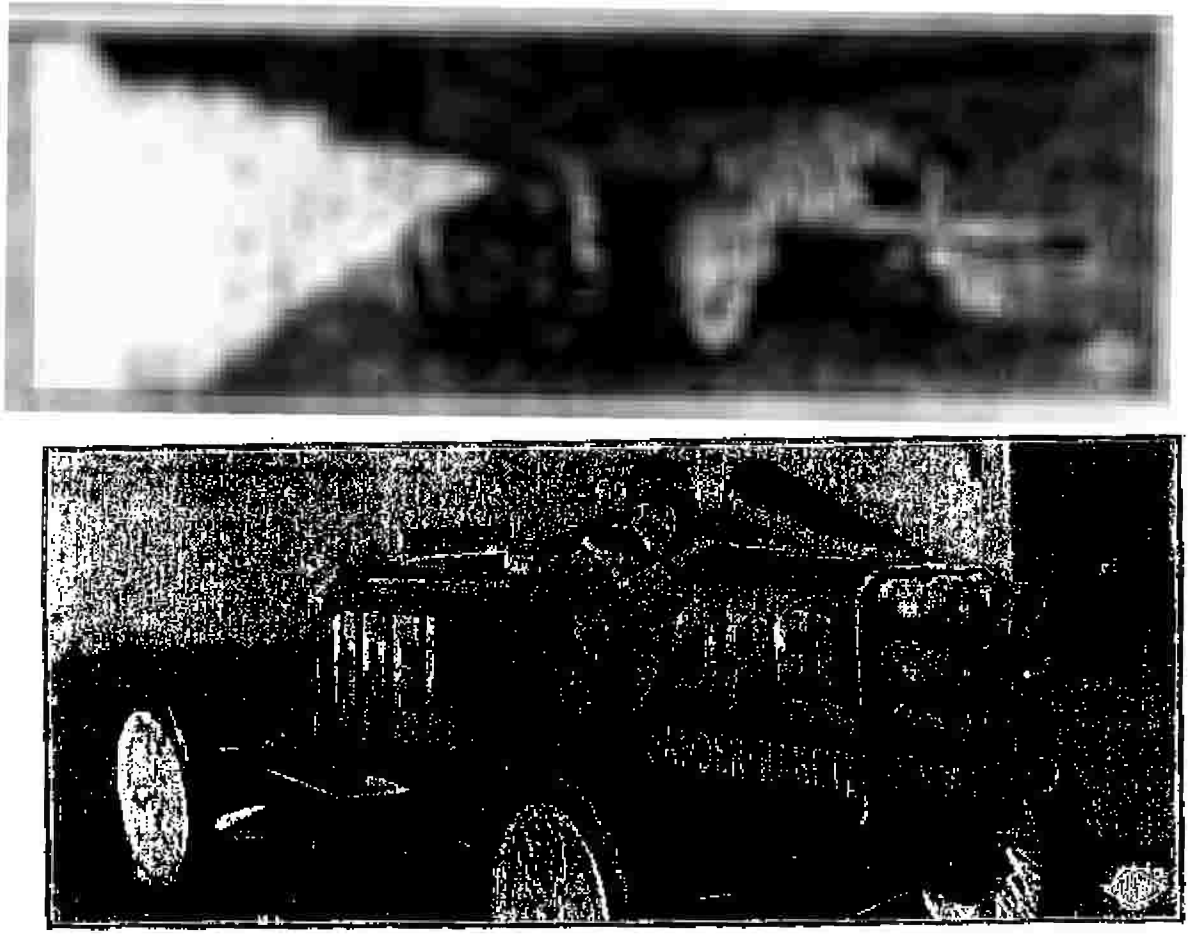

منظران للسيارة « اوبل » المبنيّة على مبدأ الصاروخ